

تفسير البحر المحيط

@ 63 @ (سقط : وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا يستهزئون) .

{ وَيَوْمَ يُعْرَضُ } : أي يعذب بالنار ، كما يقال : عرض على السيف ، إذا قتل به .
والعرض : المباشرة ، كما تقول : عرضت العود على النار : أي باشرت به النار . وقال
الزمخشري : ويجوز أن يراد عرض النار عليهم من قولهم : عرضت الناقة على الحوض ، يريدون
عرض الحوض عليها ، فقلبوا . ويدل عليه تفسير ابن عباس : يجاء بهم إليها فيكشف لهم عنها
الشر . ولا ينبغي حمل القرآن على القلب ، إذ الصحيح في القلب أنه مما يضطر إليه في
الشعر . وإذا كان المعنى صحيحاً واضحاً مع عدم القلب ، فأى ضرورة ندعو إليه ؟ وليس في
قولهم : عرضت الناقة على الحوض ، ولا في تفسير ابن عباس ما يدل على القلب ، لأن عرض
الناقة على الحوض ، وعرض الحوض على الناقة ، كل منهما صحيح ؛ إذ العرض أمر نسبي يصح
إسناده لكل واحد من الناقة والحوض . وقرأ الجمهور : أذهبتم على الخبر ، أي فيقال لهم :
أذهبتم ، ولذلك حسنت الفاء في قوله : { فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ } . وقرأ قتادة ،
ومجاهد ، وابن وثاب ، وأبو جعفر ، والأعرج ، وابن كثير : بهمزة بعدها مدة مطولة ، وابن
عامر ، بهمزتين حققهما ابن ذكوان ، ولين الثانية هشام ، وابن كثير في رواية . وعن هشام
: الفصل بين المحققة والملينة بألف ، وهذا الاستفهام هو على معنى التوبيخ والتقرير ،
فهو خبر في المعنى ، فلذلك حسنت الفاء ، ولو كان استفهاماً محضاً لم تدخل الفاء .
والطيبات هنا : المستلذات من المآكل والمشارب والملابس والمفارش والمراكب والمواطء ،
وغير ذلك مما يتنعم به أهل الرفاهية .

وهذه الآية محرصة على التقلل من الدنيا ، وترك التنعم فيها ، والأخذ بالتقشف ، وما
يجتزي به رفق الحياة عن رسول الله في ذلك ما يقتضي التأسى به . وعن عمر في ذلك أخبار تدل
على معرفته بأنواع الملاذ ، وعزة نفسه الفاضلة عنها . أتظنون أنا لا نعرف خفض العيش ؟
ولو شئت لجعلت أكباداً وصلاءً وصلائق ، ولكن استبقي حسناني ؛ فإن الله عز وجل وصف أقواماً
فقال : { أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ }
والصلاء الشواء والصفار المتخذ من الخردل والزبيب ، والصلائق : الخبز الرقاق العريض .
قال ابن عباس : وهذا من باب الزهد ، وإلا فالآية نزلت في كفار قريش ؛ والمعنى : أنه كانت
تكون لكم طيبات الآخرة لو آمنتم ، لكنكم لم تؤمنوا ، فاستعجلتم طيباتكم في الحياة
الدنيا . فهذه كناية عن عدم الإيمان ، ولذلك نزلت عليه : { فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ }

عَذَابَ الْهُونِ } ؛ ولو أريد الظاهر ، ولم يكن كناية عن ما ذكرنا ، لم يترتب عليه
الجزاء بالعذاب . وقرء : الهوان ، وهو والهون بمعنى واحد ثم بين تلك الكناية بقوله :
{ بِرِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ } : أي تترفعون عن الإيمان ؛ { وَبِرِمَا كُنْتُمْ
تَفْسُقُونَ } : أي بمعاصي الجوارح وقدم ذنب القلب ، وهو الاستكبار على ذنب الجوارح ؛
إذ أعمال الجوارح ناشئة عن مراد القلب . .

ولما كان أهل مكة مستغرقين في لذات الدنيا ، معرضين عن الإيمان وما جاء به الرسول ،
ذكرهم بما جرى للعرب الأولى ، وهم قوم عاد ، وكانوا أكثر أموالاً وأشد قوة وأعظم جاهاً
فيهم ، فسلط عليهم العذاب بسبب كفرهم ، وضرب الأمثال . وقصص من تقدم تعرف بقبح الشيء
وتحسينه ، فقال لرسوله : واذكر لقومك ، أهل مكة ، هوداً عليه السلام ، { إِذْ أُنْذِرَ
قَوْمَهُ { عَاداً عَذِبَهُم } { بِآلِ آلِ حَقَّافٍ } . قال ابن عباس : واد بين عمان ومهرة .
وقال ابن إسحاق : من عمان إلى حضرموت . وقال ابن زيد : رمال مشرقة بالشحر من اليمن .
وقيل : بين مهرة وعدن . وقال قتادة : هي بلاد الشحر المواصلة للبحر اليماني . وقال ابن
عباس : هي جبل بالشام . قال ابن عطية : والصحيح أن بلاد عاد كانت باليمن ، ولهم كانت
إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ } ، وفي ذكر هذه القصة اعتبار لقريش وتسليية للرسول ، إذ كذبه
قومه ، كما كذبت عاد هوداً عليه السلام . والجملة من قوله : { وَقَدْ خَلَّتِ الذُّرُ
{ : وهو جمع نذير ، { مِّنْ بَيِّنٍ يَدْعِيهِ وَمِنْ خَلْفِهِ } ، يحتمل أن تكون حالاً من
الفاعل في : { الذُّرُ مِّنْ بَيِّنٍ يَدْعِيهِ } ، وهم الرسل الذين تقدموا زمانه ، ومن
خلفه الرسل الذين كانوا في زمانه ، ويكون على هذا معنى { وَمِنْ خَلْفِهِ } : أي من

بعد